ولهذا كله كان قادة الهجوم موقنين من القدرة على تحقيق النصر الحاسم والسريع ، فرسموا خطة المعركة ، واعدوا في الوقت نفسه البيانات العسكرية التي ستذاع بعد نجاح الهجوم الذي كان من المنتظر ان يحقق اغراضه خلال يومين او ثلاثة ايام على ابعد تقدير .

ولقد حكم هذا المنطق نفسه تفكير العديد من المراقبين العسكريين والسياسيين خارج المخيم منذ ليلة ٢٢ ــ ٢٣ حزيران ، وخاصة بعد البيانات المتفائلة التي اصدرها المهاجمون في يومي ٢٣ و ٢٤ ، واعلنوا فيها ان قواتهم تتقدم وتكسب المواقع ، وان معنوياتها عالية ، « وليس امام المدافعين سوى الاستسلام ! » . ولم يستطع احد من المهاجمين او المراقبين ان يفسر انذاك بيان قيادة الدفاع عن المخيم حول « تطويق المخيم من جميع الجهات بقوات كبيرة وتعرضه لهجوم قوي ، واستعداده رغم ذلك للصمود » . اذ ليس من المعقول ان تستطيع قوة محدودة ومعزولة ادارة المعركة الدفاعية بنجاح ولمدة طويلة طالما ان قواها البشرية ومخزونها من المؤن والذخائر والمواد الطبية ينقص يوما بعد يوم ، في الوقت الذي يستطيع المهاجم بتجديد قواته ومدها بالرجال والسلاح والمؤن والذخائر بشكل لا ينقطع .

وهكذا حاكم الكثيرون معركة تل الزعتر في ايامها الاولى في ضوء منطقهم . ولكن المدافعين عن المخيم كان لهم منطق اخر . اذ لم يكن المخيم المطوق مجرد موقع ينبغي الدفاع عنه حتى اخر طلقة واخر رجل فحسب ، بل كان بالنسبة اليهم ايضا « منارة » لا بد من بقائها مضيئة اطول مدة ممكنة ، حتى تقرأ الاجيال العربية في ضوئها ملاحم الصمود ، وتتعلم في مدرستها حقائق الدفاع ، وتعي قدرة الانسان العربي على صد الهجمات المتفوقة عندما تتوفر لدى قياداته ومقاتليه الارادة على تحدي المستحيل .

وقدر اكثر المراقبين تفاؤلا ان ميزان القوى يفرض على المدافعين اللجوء الى الدفاع الثابت الذي يوقف المهاجمين ويكبدهم خسائر متراكمة تحد من اندفاعهم وتساعد المدافعين بالتالي على الاحتفاظ بمواقعهم . ولكن القيادة السياسية ــ العسكرية في المخيم لجأت الى اسلوب دفاعي ارقى ، فلم تكتف بالدفاع الثابت الذي يجمد القوة المحتشدة امامها ، بل لجأت الى الدفاع الهجومي ، وشنت (رغم اختلال ميزان القوى) هجمات معاكسة متكررة ، كانت تسترجع على اثرها المواقع المفقودة في المكلس ، ومنطقة المصانع ، وتلة المير ، ورأس الدكوانة ، وحرش تابت . وتطارد المهاجمين المنسحبين وتهاجم قواعد انطلاقهم . وهنا امتزج الصمود في الدفاع مع الاقدام في الهجوم المعاكس . واضطر المهاجمون الى زج المزيد من القوات للهجوم ، وتحول المخيم من موقع محاصر يدافع عن نفسه الى نقطة اجتذاب واستنزاف للقوات المهاجمة ، وبدأ الفراش يحترق على المصباح المضيء ، وطالت المعركة اضعاف وسط دهشة المهاجمين والمراقبين على حد سواء ، وبقيت الراية خفاقة فوق هذه المدرسة الدفاعية .

ولقد زاد من اهمية قتال المدافعين وبريقه واعطاه سمة بطولية واضحة ، ان المهاجمين الذين اذهلتهم بطولة الدفاع والخسائر البشرية والمادية التي